جاهلية العم فنخير

من أول وهلة.. بدا لهم كأنه الإنسان الأول، بعد أن اندثر دين آدم ●، وأصبح الإنسان متوحشاً، يعيش على الأوهام والخرافات والأساطير.. كان عاري الرأس، قد تساقط عنه الشعر، ولم يبق إلا قُزَعٌ وراء الأذنين، وفوق الرقبة، ولحيته بيضاء خفيفة شعرها طويل متشعث، وما بقي من وجههة، بعد اللحية التي لا يشذبها، تملأه التجاعيد العميقة، في الجبهة وفي الوجنتين والخدين، وحول الفم حتى أصابت التجاعيد حدود الأنف. يجلس على حشية من خيش، ويتوسد حشية أخرى، وإلى جانبه بطانية يتغطى بها عندما يحس بالبرد، وليس في عريش الخيش البالي، إلى جانب هذه الأوعية، إلا إبريق شاي قديم، وكوب ماء صدئ، وصحن علته طبقات من الأوساخ.. وأمام العريش أربعة شياه، تسرح وتعود وحدها، فقد ألفت المكان، فهي تسرح منه وتروح إليه.

إنه شيخ في التسعين من عمره.. أحس الوعاظ الثلاثة الذين

يجوبون منطقة «الرويشد» الصحراوية لوعظ الناس هناك وتعليمهم شيئاً من أمور الدين – أحسوا بوحشة تجاه هذا المشهد.. ومع ذلك، سلموا عليه فرد عليهم السلام دون أن يتحرك من مكانه، بل دون أن يدعوهم للجلوس.. ولكن هدفهم فرض عليهم أن يجلسوا بعد أن استأذنوه:

– أتأذن لنا يا عم بالجلوس، قال ذلك أميرهم، وهو يشير بيده تعبيراً عن المقصود، لأنه قدر أن العجوز لن يفهم عليه بسهولة.. لم يتكلم العجوز، وإنما أشار بيده لهم: أن اجلسوا جلسوا على التراب، لم يعرض عليهم شيئاً من الزاد أو الشاي مثلاً، وإنما اعتدل في جلسته مطرقاً.

قال أمير الجماعة.

– منذ متى تعيش هنا يا عم في هذه الخيمة البعيدة عن خيام البدو؟ واستعان بحركات يديه ليفهم العجوز مراده.

رفع عينيه إليه ثم أشار بيديه وقال بلهجته البدوية التي لا تكاد تفهم لابن الحاضرة:

– منذ كنت شاباً في الأربعين.

– أليس لك زوجة وأولاد؟

– وأشار بيده لا.

– ولماذا تعيش وحدك؟

– قال كلمات فهم منها أمير الجماعة أنه أَلِفَ الوحدة وارتاح لها.

وأراد أمير الجماعة أن يدخل في الموضوع المهم:

– اتصلي يا عم؟

وبدا أنه لم يفهم مقصوده، فهز رأسه مستفسراً..

فمثل له أمير الجماعة بعض حركات الصلاة، ولكن العجوز لم يفهم المقصود بهذه الحركات، فأشعره بكلمات متقطعة وبإشارة من يديه أنه لم يفهم مراده وعندئذ سأله الأمير:

– من نبيك؟!.

– نبيي!! نبيي هو... اللّه!!.

– ألا تعرف نبينا محمد [الذي أنزل اللّه – تعالى – عليه القرآن، وعلمنا الدين الإسلامي، وهدانا إلى الصراط المستقيم؟

نظر الشيخ إلى البعيد، ثم نظر إلى أمير الجماعة وقال:

– لا أعرفه، ولم أسمع عنه شيئاً..

أحس الوعاظ الثلاثة أن عليهم مسؤولية كبيرة في تعليم هذا العجوز مبادئ الاسلام وأن عليهم أن يقدموا له فكرة عن النبي محمد [وأن يعلموه الصلاة.. وشرع الثلاثة يتحدثون إليه، واحداً بعد آخر كلٌّ يوضُح جانباً. ولكن بعد حديث وتوضيح وتمثيل للمعاني التي عرضوا لها استمر ساعة كاملة، قال لهم كلاماً فهموا منه أنه لا يريد أن يغير شيئاً مما هو عليه منذ أن عرف الحياة، وليس في نيته أن يصلي.. قال له أحد الوعاظ:

– ولكن ماذا يفعل لك الحق إذا لم تعرف مبادئ دينك ولم

تعـرف نبـيك، ثم تتـوب إلى اللّه مما كنت فـيـه، وتأخـذ بأداء الصلاة؟ نظر في البعيد وقال بلهجته البدوية التي لم يفهمها الوعاظ إلا بصعوبة، مستعينين بدلالة الحال:

– أنا مُسلّمٌ أمري إليه، ليفعل ما يشاء، لم أعد راغباً في تغيير شيء مما أنا عليه.. أنا مرتاح لما أنا فيه.. لا تطلب مني أي أمر لم أعتد عليه منذ وعيت الحياة ورجاه أمير الجماعة أن يرافقهم إلى المسجد على بعد أربعة كيلو مترات، وهم مستعدون أن يحضروا له دابة يركبها.. لكنه رفض هذا العرض بإصرار... وعادوا دون أن يتمكنوا من أقناعة بمرافقتهم إلى المسجد..

وفي اليوم التالي أرسلوا له واعظاً نشيطاً ذا قدرة بالغة على اجتذاب الناس.. ولكنه حاول حمله على تعلم شيء جديد عن الإسلام أو على مرافقته إلى المسجد، ولا سيما أنه أحضر معه حماراً قوياً، فلم يفلح..

ومضى الوعاظ الدعاة يجوبون بادية الرويشد مدة شهرين يعلمون البدو الدين، ويفتون لهم، ويعلمونهم الصلاة، ويحثونهم على المداومة عليها، وقد استجاب لدعوتهم كثير من الناس، بل لقد أَلَحْ عليهم بعض الجماعات أن يعودوا إليهم، مرة كل شهرين على الأقل.

وفي طريق عودة الوعاظ الدعاة عرض أميرهم عليهم فكرة زيارة الشيخ العجوز مرة أخرى. قال أحدهم معترضاً:

– لقد بلغ الرجل من العمر عتياً، ويصعب أن يقتنع بشيء جديد، لان عروق دماغه قد تيبست، فلا يجري فيها إلا ما كان يجري فيها، وإذن، لا فائدة من زيارته مرة أخرى.

وعلّق آخر:

– لكن الكلمة الطيبة كحبة القمح الناضجة، إذا بذرتها في الأرض أخصبت، فلعلّ كلامنا في المرة السابقة إلى هذا الشيخ العجوز يكون قد فعل فعله في نفسه، فنجده مستعداً لقبول دعوتنا في هذه المرة .

وعلّق ثالث:

– لكن حّبة القمح الناضجة لا تخصب في كل مكان، وإنما تخصب إذا وجدت أرضاً خصبة، ولكنها لا تنبت إذا وقعت على صفوان.

وختم الأمير الحوار بينهم بكلمات حازمة حاسمة قال:

– إذا نحن عدنا دون أن نمرّ به، ظللنا نأسف لفترة طويلة، لأننا لم نجرب حظنا معه مرة أخرى، أما إذا مررنا فلا نأسف ولن نخسر.. فإذا استجاب كان ذلك ما نبغي.. وإلاّ كنا قد أدينا واجبنا على خير وجه.

استقر الرأي بعد حديث الأمير، على أن يزوروا خيمة الشيخ العجوز، لعلهم يصلون من نفسه إلى ما لم يصلوا إليه قبل شهرين.. لعله يحفظ اسم الرسول – محمد – واسم الكتاب

الذي أنزل عليه، ولعله يأخذ بالصلاة، بما يمكن أن يحفظ من كلمات – الفاتحة – ثم يتدرج في تعلمها حتى يحفظها كلها.

ولكن كان أسف الوعاظ شديداً عندما لم يجدوا إلا الآثار.. لقد اختفت الخيمة والشيخ والشياه!.. وعندما سألوا البدو المجاورين.. أفادوا بأن الشيخ – فنخير – قد مات.

opeikandl.com